القضايا النقدية والبلاغية في المصنفات التراثية حول شعر المتنبي

الباحثة /هبه سالم بكر عافية
لدرجة الماجستير قسم اللغة العربية كلية الاداب جامعة المنوفية

تمهيد:

شغلت هذه القضية التفكير النقدي العربي قديما حيث لا يكاد يخلو مؤلف تكلم عن النقد والبلاغة من فصل يتناول السرقات، وعلى الرغم من اختلاف النقاد في تصنيفها فإن أغلبهم قد جعل قوام هذه القضية على الإحصاء، وتتسم في الغالب بالأحكام المطلقة، فكان هم كل ناقد أدبي أن يجمع لهذا الشاعر مجموعة الأشعار التي تعود في معناها أو صورتها إلى شاعر يسبقه أو يعاصره ، وامتدَّ الأمر بهم إلى أن أجهد البعض أنفسهم في تتبع شعر أحد الشعراء، فألّفوا فيه كتبا تثبت أن جلّ شعره مأخوذ من غيره، والحقيقة أن النقاد لم ينطلقوا من أبعاد فنية خالصة، ولكن شابت مواقفهم بعض الأسباب الشخصية الذاتية، فالمتنبي كان من أكثر الشعراء حظاً بتتبُّع النقاد لظاهرة الأخذ والاحتذاء في شعره، ولعل ذلك يرجع إلى كثرة خصوماته إلى درجة العداء الذي يتضح بأنه هو الشاعر العربي الذي أُلفت باسمه كتب في السرقات، وقد اتَّسمت الرؤية النقدية لظاهرة الأخذ والاحتذاء بالمحاولات الاحصائية ورصد الظواهر دون أن تتعداها إلى إجراء منهجي في التحليل والمقارنة؛ لذلك كان لزاما علينا في الدراسات الحديثة ألا نكتفي بإيراد الأمثلة الإحصائية عند النقاد القدماء، وأن نتتبع ما أوردوه في كتبهم دون إضافة الجديد، أو إثراء المادة النقدية من خلال الدراسة؛ فكان ضروريا البحث عن طريقة نقدية تضيف جديدا لظاهرة الأخذ والاحتذاء في شعر المتنبي خاصة وفي ظاهرة الأخذ عامة(المقارنة الأسلوبية) وذلك من خلال تتبع البنيات الصرفية والتراكيب واختلافها من شاعر إلى آخر[1] ، وقد التفت إيه عبد القاهر الجرجاني حين رفض قولهم (أخذ اللفظ بعضه أو كله، أو أخذ اللفظ دون المعنى)، وقدَّم المقارنة الأسلوبية نهجا قضى فيه على ثنائية اللفظ والمعنى، فما الألفاظ عنده إلا خدم للمعاني،

[1] - انظر بحث جدل المنهج والظاهرة، الأستاذ الدكتور عيد بلبع، من منشورات مجلة كلية الآداب، جامعة المنوفية، العدد ، عام ٢٠٠٣م، وقد نُشير ابحث في كتاب: جدل المنهج والظاهرة – السرقات الشعرية بين النقد الأسلوبي والتناص، مراجعات في التلقّي العربي، من منشورات دار الحسين للطباعة والنشر، ١٤٤٠- ٢٠١٩م.

فمجموعة الكلمات التي تراصت مع بعضها وكونت تركيبا خاصا بها تسمى الأسلوب أو صورة المعنى كما قال عبد القاهر[١]

و عندما تطرَّق عبد القاهر لقضية السرقات تحدث عن الاتفاق في المعنى وقال أن الشاعران يقولان في معنى واحد وهو قسمان : الأول: أحدهما غفل، والآخر مصورا، والثاني: أن تري كل واحد من الشاعرين قد صنع في المعني وصور[٢].

وعلى الرغم من الانتقادات التي وجهت إلى الرؤية الاجتزائية في النقد العربي القديم، إلا أن معالجة عبد القاهر لم تسلم من سلبية النظرة الاجتزائية، التي اتسمت بها دراسة الظاهرة على مر القرون قبله، فبالرغم من الانتقادات التي وجهت إليها، فإن طبيعة هذه الدراسة التي تقوم على تلك الدراسات القديمة تحتّم الوقوف عند هذه الظواهر الجزئية بغرض دراستها، ويتمُّ الصنيع نفسه مع الوقفة النقدية التراثية عند الأحكام النقدية.

ومن خلال المقارنة الأسلوبية ستقوِّم الدراسة الأحكام التقييمية كالآتي:

١- الأحكام غير المعللة- المطلقة.

٢- الأحكام المجمل

٣- الأحكام التي تبعد عن الفنية أو الذوق البلاغي.

٤- الأحكا م التي تعتمد مع الرفض والردِّ على السخرية والتهكم.

وهذا نموذج للأحكام المطلقة- غير المعللة من كتاب" الوساطة بين المتنبي وخصومه" للقاضي عبد العزيز الجرجاني حيث:

أورد القاضي الجرجاني قول أبي تمام مقارنا بينه وبين قول المتنبي، وذلك في محاولة منه لإثبات صحة قول أبي تمام على المتنبي، حيث يقول أبو تمام:

ولَو لم يَكُن في كَفّه غيرُ نفسِه لَجَاد بِها فَلْيَئِقِ اللّه سائلُه.

وقال أبو الطيب[٣]:

---

[١] - انظر كتاب دلائل الإعجاز، الإمام عبد القاهر الجرجاني، ٤٦٨، ٤٦٩.

[٢] - دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ٤٨٨، ٤٨٩.

[٣] - البيت من بحر الرجز، ديوان المتنبي، ٢٤. ديوان المتنبي، تحقيق د/ الحسيني الحسيني معدي، دار الخلود للنشر والتوزيع، لا توجد سنة النشر

يا أيُّها المُجدَى عليه رُوحُه إذْ ليس يأتيه لها استجداء
أحمد عفاتَك لا فُجعت بفَقْدهم فلترك مالَم يأخذوا إعطاء

ثم علّق على البيتين بقوله:

"وبيت أبي تمام أملح لفظًا وأصحُّ سبكًا. وزاد أبو الطيب بقوله: إنه يجدي عليه روحه. ولكن في اللفظ قصور، والأول نهاية في الحسن"[1].

– مما سبق يتضح لنا أن الجرجاني في بداية إحصائه لسرقات المتنبي اعتمد على الأحكام غير المعللة– المطلقة، فقال في بيت أبي تمام بملاحة اللفظ وصحة السبك، وأنه نهاية في الحسن، وفي بيت المتنبي قال بالزيادة في قوله: إنه يجدى عليه روحه، ثم نعته بقصور في اللفظ.

- ولذا بحثنا في الأساليب عن أسباب تلك الأحكام، وهل من صحة فيها؟، نجد الآتي:
- استعمل أبو تمام أسلوب الشرط بالأداة (لو) وهي هنا تحمل المتلقي على التخييل، حيث يبدأ المتلقي بتخيل ما يمكن حدوثه بعد أداة الشرط (لو)، فيحمل العقل علي تخيل شيء غير موجود في الحقيقة ألا وهو الجود بالنفس. كما استعمل التقديم والتأخير بين متعلقات الفعل يكن (في كفه، غير نفسه)،[ففاعل يكن هو (غير) وهو مضاف و(نفسه)مضاف إليه، ونفس مضاف والهاء في نفس ضمير متصل مبني في محل جر مضاف إليه]، لكن الشاعر قدم الجار والمجرور (في كفه) وذلك لقوة سندها للمعني الذي يتحدث أساسا عن العطاء وعلاقته باليد، وليحمل المتلقي على تخيل ما يمكن أن يكون في الكف. كما استعمل الإنشاء الطلبي المتمثل في فعل الأمر في قوله (فليتّق الله سائله) فالشاعر يقول لسائلي ممدوحه على سبيل الرجاء ألا يسرفوا في الطلب لما سيترتب على ذلك الإسراف من نتيجة.
- استعمل أبو تمام الصور البلاغية في قوله:(لو لم يكن في كفه غير نفسه) فهي استعارة حيث جعل جعل النفس شيئا ماديا يمسك بالكف. وقوله: (لجاد بها) استعارة حيث استعار صفة الجود الخاصة بالأشياء المادية إلى النفس وهي شيء معنوي لا يرى ولا يلْمس.

[1] - الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي عبد العزيز الجرجاني، ١٨٦. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، المكتبة العصرية- صيدا- بيروت، ١٤٣١ه/ ٢٠١٠.

- واستعمل المتنبي أسلوب الإنشاء الطلبي المتمثل في الأمر (احمد عفاتك)،وهنا يعكس المتنبي المعني تماما، فبدلا من ان يشكر السائلون ذلك الممدوح، جعل المتنبي الممدوح هو من يشكر السائلين لأنهم جادوا عليه بروحه، وذلك بعدم الإسراف في الطلب لأنه إذا فعلوا ذلك أعطاهم روحه، فيكونوا بذلك قد أعطوه روحه بتركهم الطلب. ومن أجل تأكيد هذا وتقويته استخدم الجملة الاعتراضية بالدعاء (لا فجعت بفقدهم)، فالمتنبي هنا مستمر في محاولاته لقلب المعنى فبدلا من أن يدعو للسائلين بألا يفقدوا معطيهم فهو دعا لذلك الممدوح(المعطي) بألا يفقدهم. فهذه مبالغة شديدة من المتنبي أدت إلى الإغراب في المعنى، وقول المتنبي (يا أيها المجدى عليه روحه) يحمل المتلقي على التخييل، وأما قوله إذ ليس يأتيه لها استجداء يوهم المتلقي بأن الممدوح لا قاصدين له ، وما يؤكد ما نستنتجه ما روي عن قوله في نفس القصيدة وهو يتحدث عن رحلته إلي الممدوح ويصف الناقة فيقول:

أنْسَاعها مَمْغوطة وخفافُها ... مَنْكوحة وطَريقُها عذْراءُ[1]

فأورد العكبري في شَرحه يقول على لسانه " قال الشيخ أبو محمد عبد المنعم بن صالح النحوي عند قراءتي عليه هذا الديوان، وقد وصلت إلى هذا البيت: سألني الملك الكامل أبو المعالي محمد بن أبي بكر بن أيوب ملك الديار المصرية والشام والحرمين عن هذا البيت في قوله:" وطريقها عذراء". فقُلْت له: يريد أنها صعبة لم تسلك، فقال لي: هذا يدل على أن الممدوح لا يعرف ولا له ذكر ولا نائل؛ لأن الطريق إليه عذراء لم تطرق، والممدوح إذا كان له عطاء وذكر ويعرفه القصاد كانت الطريق إليه لا تنقطع. ولقد أحسن في هذا النقد"([2]).

- فكل من الشاعرين استعمل المبالغة بغرض المدح لكن أبا تمام كان أكثر حظاً في مبالغته لأنها مبالغة مقبولة تحمل العقل على التخيل والتفاعل مع الصورة وكأنها حقيقة ، لكن المتنبي وصل- كما أسلفنا القول- إلى الإغراب والإحالة فيها لذا كان صعبا على المتلقي الانخراط في صورته والتفاعل معها، ولأنها كانت عبارة عن ألفاظ جافة تفتقد ذلك

[1] - ديوان المتنبي،
[2] - التبيان في شرح ديوان المتنبي، ١،

التناغم الذي يشد الأسماع ويجذب الانتباه. لذا يأتي بيت المتنبي تحت قسم الشاعر الذي أتي بالمعنى غفلا ساذجا، ويأتي به أبو تمام في صورة تروق وتعجب، على حسب تقسيم عبد القاهر الجرجاني[١]أثناء حديثه عن الأخذ وعن اشتراك شاعرين أو أكثر في القول في معنى واحد.

- ويكمل الجرجاني ما بدأه قائلاً:" ثم نقل المعني عن الروح إلى الجسد فقال:

لو اشتهت لحم قاريها لبادرها خراذلٌ منه في الشيزى وأوصال[٢].

ثم قال وهذا هو الأول، ومن جاد بأوصاله فقد جاد بروحه[٣].

١- هذا البيت ينضم إلي سابقيه في المبالغة، كما أنه يقرع أسماع المتلقي بألفاظ مثل " الشيزى"، فاجتماع الشين مع الزاي في كلمة واحدة يجعل الأسماع تنفر منها. ثم يذكر الجرجاني بيت ابن الرومي القائل:

لَو حرَّ من جسمه لسائله... أَنْفَسَ أعْضَائه لمَا أَلَمَا.

٢- فهذا مبالغة مدحية أيضا ولكنَّه عبر عن المعَني بصورة أرق وأنقى من صورة المتنبي فعبر عن قمة التضحية من الممدوح فكل منهما استخدم(لو) الشرطية، وعبر عن (الأوصال) بـ(حز) فهذا الفعل يحمل المتلقي علي تخيل الصعوبة التي تكمن في قطع أنفس الأعضاء فلو كان شيئا عاديا لعبر عنه بقطع ، ولكن حز تحمل دلالة الألم الذي ينفيه الشاعر في آخر الشطر الثاني بقوله (لما ألما)، غير أنه عبر عن تلك الأعضاء المقطوعة بـ[أنفس الأشياء] وهي تقابل تلك الألفاظ المنفرة عند المتنبي، فالمتنبي حاول أن يخفي أخذه ويزيد على معنى ابن الرومي لكن المبالغة في إخفاء الأخذ أدت به إلي اختيار الألفاظ الغامضة.

ويستقصي الجرجاني في ذكر ابيات المتنبي في نفس المعنى إلى أن يصل إلي قول المتنبي[٤]:

إنّك من معشَرٍ إذا وهَبوا ما دون أعْمارِهِم فقد بَخِلوا [١].

[١] انظر كتاب دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني،
[٢] - الديوان،٤٣٦.
[٣] - انظر الوساطة، القاضي عبد العزيز الجرجاني، ١٨٦.
[٤] - البيت من بحر المنسرح، الديوان، ء

قال فيه الجرجاني[٢]:" فجاء به معنى مفردا، وهو من باب السماحة بالروح. والغرض واحد، ومن هذا المعنى قول بكر بن النطاح:

ولو خَذَلَتْ أموالُه فَيْضَ كفّه لَقَاسَم من يرجوه شَطْرَ حياته

- حينما قال بن النطاح في هذا المعنى استخدم أدواتَ لم تأخذه إلي حد الإغراب والإيغال كما فعل المتنبي؛ فاستخدم بن النطاح في الشرط أداة الشرط (لو) التي تفيد استحالة الجواب لاستحالة الفعل، وحتي لا تأخذه للمبالغة غير المقبولة كما فعل المتنبي باستخدامه أداة الشرط (إذا) في فكرة تعتمد على المبالغة.
- استخدم المتنبي بعض المؤكدات التي تفيد تحقق وقوع الفعل مثل: إنك– قد مع الفعل الماضي. فابن بدلا من المؤكدات والشرط الواقع قطعا في مدح، فضَّل التخييل مع (لو) حتي تكون فكرته مقبولة ومعتدلة، وقادرة على العقل على التخييل.
- ونورِد نموذجا آخر للقاضي الجرجاني، اعتمد فيه على الحكم بالقيمة، لكنه كان حكما يبعد عن الفنية ، والتذوق البلاغي للغة: فأورد قول كل من

كثيِّر عزة أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لي ليلى بكل سبيل

وقول أبي نواس:

ملكٌ تَصوَّر في القُلُوب مثَالُه فكأنَّه لَمْ يَخْلُ منه مكَانُ

وأورَد للمتنبي قوله:

كذب المُخبِّر عنْكَ دُونَك وصْفُه مَن بالعراقِ يراكَ في طَرسُوسا

فقال فيه:" فقصر لأنه اقتصر على من بالعراق ، وعم أبو نواس القلوب والأماكن وبين اللفظين بون في الجزالة والصحة؛ وقد كرره واستوفى، فقال[٣]:

هَذَا الذي أَبصرتَ منه حاضراً مِثْلُ الذي أبْصرتَ منه غائبا

ثُم مثّل فقال[٤]:

---

[١] - وضع الجرجاني هذا البيت مع البيت الأول القائل : لو لم يكن في كفه غير روحه..... – ناسبا إياه لبكر بن النطاح- تحت القسم الثاني من الموازنة بين الشعرين والإجادة فيهما من الجانبين.

[٢] - انظر الوساطة، ١٨٧.

[٣] - البيت من بحر الكامل، الديوان ، ٧٦.

[٤] - البيت من بحر الكامل، الديوان، ٧٦.

كالبدر من حيث التفتَّ رأيته يُهدي إلى عينيك نورا ثاقبا

- عندما قال كثير كان المعني أنَه يحاول التفكير في نسيان محبوبته، لكن من شدة الحب المسيطر على لبه فهو يراها في كل سبيل، واستخدم التشبيه بكأنما فكأنه أصبح يراها في كل حالاته فأي طريق سيسلك كي لا تتمثل أمامه إن عزم فعلا على أن ينساها؟، فهو ينقل لنا بعدا نفسيا، ينقل حالة سيطرت عليه فظهرت في شعره.
- أما كل من أبي نواس والمتنبي فقد استخدم الفكرة في المدح ، فاعتمد كل منهما على عنصر المبالغة، فأبو تمام اعتمد عليه في قوله (لم يخل منه مكان) فالفعل لم يقيَّد وأُطلق فأفاد التعميم على جميع الأماكن. والمتنبي اعتمد على الالتفاف العقلي، وقد قال في بيت قبل الذي ذكره القاضي الجرجاني:

يا من نلُوذُ من الزَّمان بظله ... أبدا ونطرد باسمه إبليسا.[1]

- فهو يبالغ كثيرا إلى حد الاستحالة حين قال (أبدا) والأبدية تعني الخلود، وهذا مستحيل حصوله، أما البيت الثاني فكان تمثيلا لذلك البيت، لكن القاضي الجرجاني اقتطع المثال من معناه الأول وأتي بالبيت التمثيلي على أنه مثال للأخذ . نخلص من هذا إلى أ ن البيت العمدة هو بيت كُثيِّر، لأنه ينقل بعدا نفسيا ذاتيا خالصا، يؤكد هذا البعد استخدام الشاعر ضمير المتكلم الذي غاب عند الشاعرين الآخرين وذلك في قوله(أريد"أنا" – لأنسى "أنا" –لي)، فهذه الضمائر تنقل لنا صراعا نفسيا ترجع خصوصيته لكثيِّر فهو يحمل نفسه على بعد إرادة النسيان.

وفي قوله : "هذا الذي أبصرت منه حاضرا ....."

فلا يعدو ذلك عن كونه قال الذي أبصرت منه وأنا حاضر مثل الذي أبصرته وأنا غائب عنه، فإذا كان قد استوفي المعنى كما قال الجرجاني ؛ فإنه عبر عنه في صورة آلية بدون شعور ذاتي.

أما قول أبي الطيب(كالبدر من حيث التفتت رأيته): فهو تشبيه. نخلص من مقارنة الأساليب إلى أن قول القاضي الجرجاني:

[1] - ديوان المتنبي، ٢٨٩.

١- (قصَّر لأنه اقتصر على من بالعراق)، (عمَّ أبو نواس الأماكن والقلوب) لا علاقة له بالنقد الأدبي والفني، بل هو مجرد حكم لقاضٍ، لا يعمل بالنقد الأدبي.

٢- (بين اللفظين بون)، علي الرغم منه أشار إلى الفرق بين اللفظين، إلا أنه لم يُشِر إلى تعليل الحكم الذي أطلقه.

٣- (استوفى المعنى)، كما قلنا فيه سابقا، لم يعدو فيه المتنبي عن قوله الذي أبصرته منه وأنا حاضر مثل الذي الذي أبصرته وانا غائب، وهذا إنما يدل على اهتمام القاضي عبد العزيز بتصنيفاته للسرقة دون الاهتمام بالظاهرة البلاغية.

٤- النظرة الاجتزائية التي طغت علي القضية بأكملها، وليس عند القاضي عبد العزيز فقط.

- ومن الأحكام غير المعللة نورد قول القاضي عبد العزيز الجرجاني في مثال أورده للمتنبي يقول فيه:

نُصَرِّفه للطَّعْنِ فوق حَوَاذِرٍ قد انقطَعَتْ فيهنَّ منْه كعاب

فيقول فيه صاحب الوساطَة : وقد زاد كأنه اَختَرعَ المعنَى وإن كان يلاحظ بيت أبي تمام [١]:

ونَالتْ ثَأْرَها الأَكبَادُ منْه فأَوْلَتْه انْدقَاقًا أو صُدُوعَا

وبيت أبي تمام الذي أَشار إليه الجرجَاني يقول:

وما كُنْتَ إلا السَّيْفَ لاقَى ضَرِيبَةً فَقَطَّعَها ثُمَّ انْثَنَى فَتَقَطَّعَا

١- أطلق عبد العزيز الجرجاني حكما بالزيادة دون أن يذكر تلك الزيادة، وما السبب في جعلها كأنها اختراع للمعنى، ولمعرفة الزيادة من عدمها، علينا أن نقارن الأبيات، ونوضح إلى أي مدى التفت الجرجاني إلى تلك المعان والدلالات المحملة بها الأبيات، وإلى الفرق بين الأبيات.

- الابيات تدور حول معنى الصراع بين السيف [الرمح] والضريبة، فإذا نظرنا إلى بيت المتنبي السابق على هذا البيت :

[١] - البيت من بحر الوافر، ديوان المتنبي، ٣٠٩.

إذَا اعوجَّ القَنَا في حَامليه وجَازَ إلى ضُلوعهمِ الضُّلوعا
ونالت ثَأرَها الأكْبادُ منه فأَولَتْه اندقَاقًا أو صدوعا
فحِد في ملْتَقَى الخَيْلَين عنه... ولو كُنْتَ الخَبعْثَنة الشَّجِيعا

- المتنبي يمدح علي بن إبراهيم التنوخي ويصف شجاعته في الحرب وأنه قاتل البطل الذي لا يهاب المعركة وتقول له الناس فدتك نفوسنا ويبدله مكان الدرع دما، فإذا اعوج الرمح في يد أهل الحرب الحاملين له وجاز الضلوع إلى ضلوع العدو، فإنه ينثني وهذه طبيعة الرمح إذا ضرب به فإنه ينثني .
- ثم يأتي جواب الشرط" فحد في ملتقي ..." لأداة الشرط [إذا]، وفعل الشرط اعوج القنا، ويعترض فعل الشرط وجوابه الجملتان المعطوفتان على فعل الشرط وهما:

الأولى:[وجاز إلى ضلوعهم الضلوعا]: وهذه الجملة كناية عن قوة الرمح الخارقةفي اجتياز الضلوع إلى ضلوع العدو، وفي كلمة [الضلوع] تشبيه: حيث شبه ذلك الهيكل الذي يخرج منه الرمح – مجتازا ضلوع العدو–حين يجذب للوراء بشيء مطاط ويدعه الضارب ليخرج من تلك الدائرة فكأنه يهذا يشق الضلوع إلي ضلوع الأعداء بدون مهل أو بطء فهو يشق الضلع ليدخل في الضلوع الأخرى ليشقها. والجناس التام في تكرار كلمة الضلوع لم يخلق حالة من التناغم التي كسرت حدة البيت فقط، بل تعداها ليعطينا دلالة أخري وهي الترهيب .

الثانية:[ونالت ثأرها الأكباد منه]:هي استعارة حيث استعار أو أسند لفظ [أخذ الثأر] للأكباد وهو لفظ لا يقع من ذلك الجماد عادة، إنما هو لفظ خاص بالإنسان والغرض من تلك الاستعارة الترهيب. ناهيك عن التقديم والتأخير بين متعلقات الفعل(نالت ثأرها الأكباد)، كما قدم ضمير الغائب المتصل [الهاء] العائدة على الأكباد عن [الأكباد]. فها هي زيادة المتنبي– كما أشار الجرجاني– بإسناد الثأر إلى الأكباد

- فالأبيات الثلاثة معا جعلوا المعنى أوضح، فلا يجوز أبدا أن أقتطع بيتا من مقطوعته كي أصدر عليه حكما بالجودة أو الرداءة، خصوصا وأن القصيدة العربية

قديما كانت تتميز بالوحدة العضوية، وهذا يتعارض مع النظرة الجزئية التي اتسمت بها ظاهرة السرقات قديما.

- أما أبو تمام فكان يقول هذا المعني في الرثاء، فكان يرثي الفقيد ويصف شجاعته في المعركة لشدة الحرب ونارها وقسوة حرها ، إلى أن يصل إلى تجسيد تلك الملحمة التي دارت بين ذلك الشجاع وبين الرمح الذي وكيف ترك كل منهما أثره على الآخر. فيقول[1]:

فإن تُرم عن عمرٍ تدانى به المدى فخانك حتى لم يجد فيك منزعا

فما كنت إلا السيف.....

- بدأ المتنبي قوله بأسلوب الشرط مستخدما أداة الشرط (إن)، فعل الشرط(ترم)، جواب الشرط(فما كنت إلا السيف)، وجملة (تدانى به المدى) في محل جر صفة لـ(عمرٍ)، والفاء عاطفة، خانك جملة مكونة من: فعل هو (خان)، الفاعل مستتر يعود العمر، الكاف ضمير مخاطب يعود على نائب الفاعل المستتر في جملة (ترم)، والجملة (فخانك) معطوفة على جملة (تدانى به المدى).
- (خانك) جملة مجازية، فهي استعارة حيث استعار صفة الخيانة التي لا تقع عادة من شيء معنوي كـ(العمر)، إنما هي صفة خاصة بالإنسان أو الحيوان.
- وتأتي جملة جواب الشرط (فما كنت إلا السيف) أسلوب قصر، فهو ينفي عنه أي صفة أخرى غير صفته بالسيف حال ملاقاته فريسته، أو ضحيته، فجملة الحال هنا (لاقى ضريبة) قيدت التشبيه، فالقصر بالسيف عن غيره من الصفات يستحضر معانٍ ذهنية عن السيف في قوته وحدته وما يحدث في فريسته، ففي ذلك القصر تشبيه حيث شبه المرثي في حدته وقوته على عدوه بالسيف حال ملاقاته فريسته، فهو بهذا هيَّأ الأسماع وجعلها تتوقع ما سيقال في الشطر الآخر الذي بدأه الشاعر بكلمة (فقطّعها) ثم أخذ الشاعر في تكثيف دلالة الصراع بالتضعيف، وهي أيضا إشارة إلي دلالة القوة والحدة المستنبطة من التشبيه بالسيف، ثم يرتب الأحداث بقوله (ثم) والترتيب يوضح

[1] - ديوان أبي تمام، تحقيق د / درويش الجويدي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١١م،المجلد الثاني،٤١٨.

المفارقة القائمة في أجزاء البيتين؛ فهو في البيت الأول يصرح بأن العمر قد تقدم بالمرثي، وفي البيت الثاني شبهه بالسيف الذي يقطّع فريسته تقطيعا، ثم ذكر أن تلك الفريسة أو الضريبة تركت هي الأخرى أثرها عليه فنالت منه ولكنه لم يذكر أنه تأثر وتقطع بنفس السرعة التي أفادتها الفاء مع الفريسة، بينما استعمل (ثم) التي تفيد الترتيب– كما قلنا– وذلك ليفيد أن هناك فترة زمنية وقعت بين نهايته ونهاية فريسته، فالترتيب في (ثم) يحمل في طياته دلالة الإبطاء وهذا يدل علي قوته حتى في الموت. فالمبالغة في البيتين مطلوبة لأنهما في المدح والرثاء، ولحمل المتلقي على التخيل، ونلاحظ هنا البعد النفسي المسيطر على بيتي أبي تمام إذ أن القصيد في الرثاء ، وهو ما يجعل التأثر في بيتي أبي تمام أكثر منه في أبيات المتنبي علي الرغم من جمال الأساليب ودقة التعبير عن المعنى.

- فبمقارنة البيتين أسلوبيا، بالإضافة إلي ما قاله القاضي الجرجاني عن بيت المتنبي، يقع البيتان في القسم الثاني من موازنة عبد القاهر الجرجاني بين الشعرين والإجادة فيها من الجانبين. فـ "كلاهما قد صنع في المعنى وصور"[1].

٢- النظرة الاجتزائية إذ رأينا بأنفسنا كيف تؤثر تلك الأبيات على على المعني وتجهله ناقصا أو كاملا.

– وأيضا من الأحكام المجملة قول الجرجاني في الحكم على بيت المتنبي والمقارنة بينه وبين الأبيات الأخرى، بأن المتنبي نقل المعنى فأحسن وأطاب، وذلك بعد أن قارن بين معنى المتنبي وغيره من الشعراء، فأورد لهم:

يفرِّق منَّا من نحب اجتماعه... ويجمع منّا بين أهْل الضَّغائن

آخر:

عجبتُ لتطويح النَّوى من أُحبُّه ... و إدْناء من لا يُستَلُّ له قُرْبُ

وهو كثير، وأصله لمضرس بن ربعي من قوله:

لَعمرك إنّي بالخَليل الذي له ... علَيَّ دلال واجبٌ لمفجَّع

[1] - انظر دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ٤٨٩.

ولئّي بالمولى الذي ليس نافعي ... ولا ضائري ما ساءه لممتّع.

نقله أبو الطيب فأحسن وأطاب:

أما تغلط الأيّام فيَّ بأن أرى ... بغيضاً تنائي أو حبيباً تقرّب([1]).

- أتى حكم القاضي الجرجاني مجملاً، غير معلل، غير مفصل.

أما وجوه الإحسان التي لم يفصّلها القاضي الجرجاني فتتمثل في الآتي:

أولاً: بيت الطرماح ، والبيت الذي يليه، وبيت المضرس اعتمدوا على المتضادات وقوتها في تجسيد المعنى من خلال إبراز الشيء وضده في بيت واحد، وذلك مثل علاقة المقابلة بين شطري البيت الأول، والتضاد بين (تطويح – إدناء)، وبين (النوى – قرب)، وبين (أحبه – لا يستلذ) في البيت الثاني، وقول الشاعر في البيت الثالث (مفجَّع – ممتَّع)، هذا إلى جانب استخدام الأول للجملة الخبرية التقريرية الخالصة، زودها الثاني بالتعجب فذكر الكلمة صريحة، أما الثالث فاستخدم المؤكدات بالقسم وإن واللام، كما استخدم الشاعر الثاني للاستعارة في قوله (تطويح النوى) حيث استعار صفة لا تقع من (النوي) عادة ، أراد بها بيان قوة البعد في إحداث الأثر بينه وبين من يهوى قربه.

ثانيا: اعتمد المتنبي في معناه علي السؤال (أما) وغرضه التعجب من الأيام فسلوكها معه دائم على نهج واحد، وهو تقريب البغيض وإبعاد الحبيب، كما اعتمد على المفارقة التي تقوم على علاقة التضاد الضمنية بين المصرح به والمضمر، فالمصرَّح به هو رغبته في قرب الحبيب منه وإبعاد البغيض عنه، والمضمر هو ما أحدثته به الأيام من السلوك الدائم معه علي إبعاد الحبيب ولهذا جعل خروجها عن هذا المنهج خطأ، تلك المفارقة توضح لنا مدى تعجب الشاعر على إصرار الأيام على نهجها معه، كما اعتمد

[1] - البيت من بحر الطويل، ديوان المتنبي ، ٩٨. ويقول العكبري في شرحه: هذه الأيام مولعة بإدناء من أبغض، وإبعاد من أحب، فما تغلط مرة بتقريب الحبيب، وإبعاد البغيض، فلو غلطت مرة وفعلت هذا. وجعله غلطا من الدهر لأنه خلاف ما يفعله الدهر ، كما قيل في بخيل:
يا عجبًا من خالد كيف لا... يغلط فينا مرة بالصواب. ..... انظر التبيان في شرح ديوان المتنبي للعكبرى،١ ،١١٧.

على علاقات التضاد في قوله(حبيب- بغيض) و(تقرب- تنائي)، فهذه المتضادات وتلك المفارقات توضح مدى معاناة الشعراء، واستعار المتنبي صفة لا تقع سوى من كائن حي وأطلقها على الأيام، فالأيام تتغير وتتبدل ولكن نهجها معه واحد لا يتغير فكان موفقا في استعارته.

وأورد الجرجاني : قول "ابن جبلة:

وما سوَّدّت عجلاً مآثرُ عزمِهم ... ولكن بهم سادتْ علي غيرِها عجْلُ.

وهذا معني سوء يقصر بالممدوح، ويغضُّ من حسبه، ويحقّر من شأنه...،وإنما الجيِّد ما قال زهير:

وما بكَ من خيرٍ أتوه فإنّما ... توارثَه آباءُ آبائهم من قبلُ.

وجري أبو الطيب علي منهاج بن جبلة فقال:

ما بقومي شرُفتُ بل شرفوا بي ... وبنفسي فخرتُ لا بجدودي[1].

فختم القول بأنّه لا شرف له بآبائه. وهذا هجو صريح...، فأما قوله:

وبنفسي فخرتُ لا بجدودي

فهو صالح لأنه لم ينف أن يكون له فيهم وبهم رتبة في الفخر، لكنه قال: أكتفي في افتخاري عليكم بنفسي فأفضلُكم ولا أفتقر إلى مفاخر جدودي وأتركها وادعة موفورة؛ وقد صرح بهذا في قوله:

وإنما يذكُر الجدود لُهم ... من نفَروه وأنفذُوا حيله[2]

- للقاضي كما نرى في هذا البيت رأيين متضادين، ففي الشطر الأول من البيت(ما بقومي شرفت...) يرى القاضي أنه هجو صريح لآبائه وأجداده، وفي الشطر الثاني(وبنفسي فخرت ..) يرى أنه صالح للسبب الذي ذكره القاضي الجرجاني آنفا؛ فكلامه في الشطر الثاني معقول، لكن لماذا رأى الجرجاني أن الشطر الأول من البيت (هجو صريح)، لماذا ترك القاضي الجرجاني الجزء الآخر من المعنى

والذي قال فيه المتنبي:

[1]- البيت من بحر الخفيف، ديوان المتنبي، ١٥٧.
[2]- الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي الجرجاني، ٣١١، ٣١٢.

وبهم فخر من نطق الضَّا ... د وعوذ الجاني وغوث الطَّريد[1].

فالواحدي قال في البيت الأول: " لو اقتصر المتنبي على هذا البيت لكان ألأم الناس نسبا لكنه قال بعده البيت التالي" ثم ذكر البيت الذي يليه.

فكلام المتنبي قائم على المفارقة، فهو أولا يقول ما بقومي شرفت بل شرفوا بي، ثم يقول بل شرفوا بي، فهو يريد أن يثبت لنفسه شيئا، ويستطرد قائلا وبنفسي فخرت لا بجدودي، ثم يعود ليثبت لآبائه ولقومه الشرف والفخر بقوله: وبهم فخر من نطق الضاد، فيتطرق إلى معان عامة يدخل فيها كل مفاخر الشعراء بآبائهم، فأجمل ولم يفصِّل، فنسب المتنبي مجهول كما نعرف من المصادر التي ذكرته فلم يذكر أي واحد منهم أي خبر آكد عن نسب المتنبي فلم يتفقوا إلا على لقبه، فظهرت بعض الاتهامات بأنه لا نسب له خصوصا وأنه كان معجبا بنفسه كما قال في البيت التالي للبيت الذي ذكرناه آنفا، فكان المتنبي في قصد من إخفاء نسبه لسبب ما، وكان لابد له أن يرد على متهميه فكان أنسب ردٍّ منه، فأحدث المفارقة حين قال أنه لا يفخر بهم ويكتفي بفخره بنفسه، وهم فخر للعرب بأكملهم ؛ نخرج من هذا بشيئين نرد بهم على قول القاضي الجرجاني:

أولهما: أن المتنبي بنى بيتيه غلى عنصر المغالطة في الحجاج، فهو ليس لديه من آبائه مفاخر يعددها، فذكّر أنهم فخر لكل من نطق الضاد، ومع كل هذا الشرف إلا أني لا أفخر بهم بل أفخر بنفسي.

ثانيهما: أن المتنبي أثبت لنفسه شرفاً أكبر من شرف آبائه الذين هم شرف وفخر لكل العرب فهو بذلك يفضل العرب كلهم ، فتلك هي المفارقة الأخرى التي غابت عن أعين النُّقاد، وإذا أتممنا قراءة البيت الذي يلي هذين البيتين نجد أنهما بمثابة توطئة للبيت الذي يليهما والذي يقول فيه:

إن أكن معجبا فعجب عجيب ... لم يجد فوق نفسه من مزيد[2]

[1] - البيت من بحر الخفيف، الديوان ،١٥٧.
[2] - البيت من بحر الخفيف، الديوان ،١٥٧.

وهذا يجعلنا نعود للقول بتلك النظرة الاجتزائية التي اتسم بها نقد القاضي الجرجاني خاصَّةً، قضية الأخذ عند النقاد عامَّةً.

وأورد الجرجاني قول كل من: منصور بن الفرج:

حلَّ في جسمي ما كا ... ن بعينيك مقيما

البحتري:

وكأنَّ في جسمي الذي ... ف ناظريك من السَّقم.

أبي الطَّيِّب[1]:

أعارني سقم جفنيه وحمَّلني ... من الهوى ثقل ما تحوي مآزره

فاختصر وأحسن وأورد البيت في نصف مصراع[2].

- أطلق القاضي الجرجاني كعادته أحكاما بالقيمة، ولم يعلل، وبالبحث في العلل يمكننا تفصيلها كالآتي:

– قوله: " اختصر" ، يكمن في أن المتنبي جمع معني ابن الفرج والبحتري في ثلاث كلمات من الشطر الأول بقوله" أعارني سقم جفنيه" ، فاختزل المتنبي المعنى في ثلاث كلمات، باستخدامه لكلمة أعارني ، مع العلم بأن الإعارة هي إعطاء الشخص شيئا بهدف استعادته مرة أخرى.

– قوله:" أحسن" :تكمن في أن المتنبي عبر عن معناه بالأفعال(أعار– حمَّل) وهي أفعال ماضية من الزمن يعني أنها حدثت وانتهى الأمر، فيفيد تحقق وقوع الفعل، على عكس التشبيه بكأن، كما أن (كأن)تحمل معنى الشك والظن[3]،واستخدم المتنبي الاستعارة في قوله (أعارني) حيث جعل الفتور شيئا ماديًّا يعار، وشبه فتور العينين بالسقم ، وزاد على الشاعرين السابقين بالشطر الثاني (وحمَّلني من الهوى ثقل ما تحوي مآزره) فشبه ثقل ذلك الهوى الذي حمَّلته إياه يثقل أردافها.

[1] - البيت من بحر البسيط، ديوان المتنبي، ٢٤٣.
[2] - الوساطة، القاضي الجرجاني، ١٩٥، ١٩٦.
[3] - مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام، ١٦١، الطبعة الأولى، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.